

## العقل المسلم وإعادة تشكيكه... مقاربة سيكولوجية للتفكير



[www.arabpsynet.com/Documents/DocAbsalamEditorialeJbs11.pdf](http://www.arabpsynet.com/Documents/DocAbsalamEditorialeJbs11.pdf)

د. خالد عبد السلام - قسم علم النفس جامعة سطيف 2 الجزائر

[absalam05@yahoo.fr](mailto:absalam05@yahoo.fr)

يواجه العالم الاسلامي اليوم أزمة في العقول والتفكير أكثر ما يواجه أزمات أخرى لأن كل سلوك وتصرف هو في الأصل نتاج طبيعي للقناعات والأفكار والبنية الفكرية التي نتبناها ونقتنع بها والطريقة التي نعالج بها معارفنا ومعلوماتنا التي نتعلمها أو نكتسبها. ولهذا نجد الكثير من العلماء والمفكرين قد ساهموا في محاولة تفكيك العقل المسلم من أجل إعادة تشكيكه لا سيما مساهمات كل كتابات مالك بن نبي وكتابات عابد الجابري وكتابات محمد الغزالي و شكيب أرسلان ومحمد أركون وغيرهم كثيرين.

فالعقل المسلم حسب مالك بن نبي في كتابه مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، أنه يفكر إما كمتهم أو كمتهم، حيث ينظر إلى العالم من حوله من زاوية التبرير و الدفاع عن نفسه ودينه وعقيدته وكأنه يحمل عقدة الذنب والالتهام لجريمة مشتبه في ارتكباها، كجريمة الإرهاب التي أصبحت لصيقة بكل مسلم في العالم، والذي غذاها تيار الإسلاموفوبيا في الغرب ودعمتها ممارسات الكثير من الإسلاميين الذين ينصبون أنفسهم دعاة للإسلام. وفي أحيان أخرى يسيطر على تفكيرهم السب والشتم واللمز والغمز والالتهام بالتآمر والخيانة والخروج عن الدين لكل من يفكر بطريقة مختلفة عن تفكيرهم أو يناقش علماءهم ودعاتهم، وأعضاء جماعتهم. بدليل ما نجده من صراع واقتتال بين الجماعات الإسلامية للاستيلاء على المساجد والجمعيات في كل دول العالم. حتى أصبحت كل امة (جماعة) تلعن أختها وتتهمها بكل الاتهامات بشكل جزافي.

كما أن العقل المسلم يمتاز بالتقديس لكل ما له علاقة بالدين، بحيث لا يستطيع الكثيرين من الأتباع والمريدين لهذه الجماعات التمييز بين الدين (القرآن الكريم) كشيء مقدس وبين تفسير وفهم القرآن والسنة كعمل عقلي بشري يخطيء ويصيب أو يقارب الصواب، بدليل وجود تفسيرات متعددة للقران الكريم ماضيا وحديثا. حيث أصبحوا يشكلون صورا ذهنية نمطية بطريقة واعية أو لا واعية تعتبر كل فكرة أو اجتهاد يصدر من أي شخص منهم لمجرد انه يحمل صفة الإسلام والدين والداعية أو الشيخ يعتبر مقدسا لا يحق لأي كان مناقشته ولا اعتراضه ولا مواجهته ونقده بأفكار و فهم جديد. بل كثيرا ما نجد مقاومة وهجوما وقصف لدى هؤلاء بكل الأساليب والوسائل المشينة لمن يفعل ذلك سواء كانوا علماء دين أو مفكرين أو متقنين أو غيرهم. والبعض من الذي تجرأوا على نقدهم ومناقشة طروحاتهم وألفوا لذلك كتبا ونشروا مقالات تم تكفيرهم ثم اغتيالهم فيما بعد كعملية منطقية وإجرائية لديهم.

ويمتاز العقل المسلم بأنه يتعلق بعالم الأشياء والأشخاص أكثر ما يتعلق بعالم الأفكار بحسب تعبير مالك بن نبي، لذلك نجد الكثيرين لا يحاولون مناقشة الأفكار التي تطرح للنقاش عليهم بقدر ما يتعرضون للشخص الذي يناقشهم إما بالاستهزاء تارة و بالالتهام والتخوين تارة أخرى وبالتشكيك والتشويه وتلفيق القصص الأخلاقية ضده. كما فعل الكثير من المفكرين والمجددين والعلماء المعاصرين لا سيما محمد الغزالي والبوطي ومحمد أركون وأبو حامد الغزالي و ابن رشد وغيرهم في القرون الماضية.

يواجه العالم الإسلامي اليوم أزمة في العقول والتفكير أكثر ما يواجه أزمات أخرى

كل سلوك وتصرف هو في الأصل نتاج طبيعي للقناعات والأفكار والبنية الفكرية التي نتبناها ونقتنع بها والطريقة التي نعالج بها معارفنا ومعلوماتنا التي نتعلمها أو نكتسبها

فالعقل المسلم حسب مالك بن نبي في كتابه مشكلة الأفكار في العالم الإسلامي، أنه يفكر إما كمتهم أو كمتهم، حيث ينظر إلى العالم من حوله من زاوية التبرير و الدفاع عن نفسه ودينه وعقيدته وكأنه يحمل عقدة الذنب والالتهام لجريمة مشتبه في ارتكباها

العقل المسلم يمتاز بالتقديس لكل ما له علاقة بالدين، بحيث لا يستطيع الكثيرين من الأتباع والمريدين لهذه الجماعات التمييز بين الدين (القرآن الكريم) كشيء مقدس وبين تفسير وفهم القرآن والسنة كعمل عقلي بشري يخطيء ويصيب

أن العقل المسلم يهتم بالشعارات والدعايات أكثر ما يهتم بالبرامج والإجراءات التطبيقية المستوحاة من فلسفة الحياة في الإسلام، وهو ما جعل مالك بن نبي يقول أن المسلم اليوم ليس في حاجة إلى من يعرفه بدينه وعقيدته لأنها موجودة لديه، بل يحتاج إلى من يترجم تلك القيم والاعتقادات و التعاليم الدينية إلى سلوكيات وبرامج عمل ميدانية ترقى بالمسلم إلى مستوى الحضارة والتحضر في علاقته وتصرفاته وفي قناعاته اتجاه العلم والعمل وغيرها من الأمور الحياتية.

أن العقل المسلم مازال حبيس الخطاب المسجدي التقليدي (خطاب أحادي الاتجاه وليس تفاعلي لا توجد فيها مناقشة ولا رد على ما يقدم) والذي يمتاز بالعاطفي والانفعالي التعبوي والتشبيدي لكسب المناصرين للجماعة التي ينتمي إليها الخطيب أكثر ما يميل إلى الموضوعية يحاول الإقناع بالحجج والبراهين المنطقية والعقلية والعلمية الميدانية، لجعل الناس يلتزمون بالسلوك والتفكير وفق قيم ومبادئ الإسلام ومقاصده. فهو عقل لم ينمو في المعاهد والمراكز العلمية التي تنمي التفكير والاجتهاد والإبداع.

أن العقل المسلم اليوم تسيطر عليه الانفعالات أكثر ما تسيطر عليه البصيرة والحكمة في قراءة الأحداث ومقاربتها بأدوات علمية ومنطقية، لذلك كثيرا ما يقع في فخ ردود الأفعال والاندفاع والتهور في معالجة قضايا الصراع الفكري والحروب النفسية المعاصرة وأمثلة ذلك كثيرة منها ما عالجهها المفكر الجزائري مالك بن نبي في كتابه الصراع الفكري في البلاد المستعمرة في خمسينيات وستينيات من القرن الماضي، قضايا معاصرة مثل قضية كتاب سلمان رشدي والرسومات والأفلام المسيئة للرسول صلى الله عليه وسلم وغيرها من القضايا الحضارية المتنوعة. حيث نجح الآخرون في جعل غالبية المسلمين أمام وضعيات المثير والاستجابة لاستنفاد طاقاتها في معارك هامشية أو وهمية كما هو الصراع المذهبي والديني فيما بين المسلمين اليوم الذي يغذيها الجميع في بعض الخطابات المسجدية والإعلامية لزرع الكراهية أكثر فأكثر ثم الاقتتال المسلح كما هو في عالمنا العربي والإسلامي.

أن عقول الكثير من المسلمين أصبحت تنصب نفسها وصية على عقول بقية المسلمين فتحتكر لنفسها الفهم والتفسير للنصوص القرآنية معتبرة من يفكر أو يحاول يفهم والتفسير للنصوص القرآنية والسنة النبوية بطريقة أخرى وبمنهجيات مختلفة فهو ضال وخارج عن الدين أوفاسق أوزنديق وغير ذلك من القوالب الفكرية الجاهزة التي تقصف إعلاميا ومسجديا بشكل جزافي. حتى أصبحت كل جماعة إسلامية تكفر وتفسق الأخرى لنفس الأسباب والاعتبارات.

أن العقل المسلم يميل إلى القوالب الجاهزة والأفكار النمطية وإلى الموروث الثقافي الماضي والفهم الكلاسيكي للدين أكثر ما يميل إلى الفهم المتجدد وإلى الإبداع وقبول الاجتهادات الجديدة والطروحات المتجددة من علماء معاصرين. وهو نوع من المقاومة النفسية والفكرية والخوف اللاشعوري من كل جديد وكأنه نوع من الحرص على الدين نفسه.

أن العقل المسلم في الكثير من الأحيان يميل إلى قبول الخرافات والأوهام أكثر ما يقبل بالتفكير العلمي المنطقي والاستقرائي في الكثير من القضايا والظواهر وخاصة فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية والنفسية والسلوكية. وظهر هذا الأمر في خطابات بعض الدعاة والشيوخ بادعائهم انهم وجدوا حلما ينبئهم بقرب النصر ويقتال الملائكة معهم ضد إخوانهم المسلمين الآخرين، وان هناك كرامات ظهرت لدي مقاتليهم كما حدث في أفغانستان أو أنهم رأوا رسول الله صلى الله عليه وسلم في المناميزكيهم أو أنهم رأوا في السماء كلمة الله أكبر أثناء

يمتاز العقل المسلم بأنه يتعلق بعالم الأشياء والأشخاص أكثر ما يتعلق بعالم الأفكار بحسب تعبير مالك بن نبي

نجد الضئيرين لا يحاولون مناقشة الأفكار التي تطرح للنقاش عليهم بقدر ما يتعرضون للشخص الذي يناقشهم إما بالاستهزاء تارة و بالاتهام والتخوين تارة أخرى وبالتشكيك والتشويه وتلفيق القصص الأخلاقية ضده

أن العقل المسلم يهتم بالشعارات والدعايات أكثر ما يهتم بالبرامج والإجراءات التطبيقية المستوحاة من فلسفة الحياة في الإسلام،

مالك بن نبي يقول أن المسلم اليوم ليس في حاجة إلى من يعرفه بدينه وعقيدته لأنها موجودة لديه، بل يحتاج إلى من يترجم تلك القيم والاعتقادات و التعاليم الدينية إلى سلوكيات وبرامج عمل ميدانية

أن العقل المسلم اليوم تسيطر عليه الانفعالات أكثر ما تسيطر عليه البصيرة والحكمة في قراءة الأحداث ومقاربتها بأدوات علمية ومنطقية

نجح الآخرون في جعل غالبية المسلمين أمام وضعيات المثير والاستجابة لاستنفاد طاقاتها في معارك هامشية أو وهمية

تجمعاتهم واجتماعاتهم وغيرها من الخرافات التي يوظفونها في الحشد الجماهيري وكسب المزيد من القداسة على أعمالهم وتصرفاتهم. حتى أصبح هناك من مازال يصدق و يؤمن بالتغيير الفجائي الذي يأتي بطريقة المعجزات كما حدث في عصر الأنبياء والرسل ولا يؤمن بالتغيير الذي يأتي بالسعي والعمل الإنساني وفق سنن الله في التغيير الذي يخطئ ويصيب وفق قوله تعالى ( إنا الله لا يغير ما في قوم حتى يغيروا ما في أنفسهم).

أن العقل المسلم أصبح عند البعض حبيس أدبيات التنظيمات والجماعات التي تنشط تحت راية الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام والتي لكل منها أهدافها السياسية والتنظيمية لحشد الجماهير وتعبئتها للمريدين والأتباع. لذلك نجد أنها تشكل لها قوالب عقلية جاهزة ترى بها كل من ينتمي إليها تعتبره مؤمن ومن لا ينتمي إليها أو لا يساندها فهو مشكوك في إيمانه أو أنه لا يجب الإسلام أو عدوله، بل البعض من الجماعات تعتبر من لم يساندها ولم يقبل أفكارها وطروحاتها فهو كافرا بالدين. وقد ظهر هذا التفكير كثيرا أثناء الحملات الانتخابية أين تجد قادة جماعات الإسلام السياسي تمارس إرهابا فكريا على عقول المسلمين عندما تضع لها الاختيار بين الإسلام ( يعني تنظيمها و حزبها) وبين الكفر والخروج عن الإسلام يعني التنظيمات والجماعات الأخرى التي تفكر وتفهم الإسلام بطريقة مختلفة. فصنعوا للمريدين أصناما جديدة ( كصنم الشيخ و صنم الزعيم و صنم الإمام و صنم الأمير و صنم الجماعة او الحزب وغيرها) حتى لا يمنعونهم من التفكير والنقد لكل تصرفاتهم، وقد غنوا اعتقادات وتصورات لديهم بمقولات مغلقة بنوع من القداسة كحكم العلماء مسموم أو رد كلامهم يعتبر خروجا عن الدين. وهو مآدى ذلك إلى ظهور شبه أديان جديدة لدى كل جماعة إسلامية تحمل مسميات متنوعة: كدين الجماعة ودين الحزب ودين المذهب ودين الطائفة ودين القبيلة ودين الدولة ودين المقاطعة و القطر الجغرافي.

وغيرها من الموصفات والخصائص التي تحتاج إلى التفكيك وإعادة النظر قبل العمل على تفكيك ومراجعة المرجعيات الفكرية والدينية التي سبق وان خاض فيها الكثير من المفكرين والعلماء في دراساتهم وكتبهم بالتجديد والتمحيص و المراجعة العلمية الدقيقة. ولكن الكثير من حركات الإسلام السياسي قامت بحجبها عن عقول أتباعها بالتشويه والتشكيك و التخوين والتكفير والتسويق وغيرها من القوالب التي نمتها وغذتها لديهم فأصبحت جزءا من إستراتيجيات نظام تفكير الغالبية العظمى من المسلمين للأسف الشديد.

فكم نحن في حاجة إلى التفتح أكثر على أفكار واجتهادات الآخرين وآرائهم وحججهم وبراهينهم حتى ندنو معا إلى الحقيقة، التي لن نبلغها ما دمنا بشرا نتحكم في أفكارنا ونظام تفكيرنا عوامل كثيرة لا سيما أهوائنا وشهواتنا ونزعاتنا وأمزجتنا وعصبياتنا وعقدنا النفسية وأمراضنا وضغوطنا النفسية، وكذا ظروفنا الاجتماعية والسياسية والثقافية والإعلامية، إلى جانب تأثير خلفياتنا وأحكامنا المسبقة وتصوراتنا اتجاه كل القضايا التي نفكر فيها، و تأثير تجاربنا وتاريخنا النفسي بآلامه وأحزانه وأفراحه و إيجابياته وفق نظرية التعلم الاجتماعي لباندورا الذي يؤكد على أهمية عملية التفاعل بين الخبرات والتجارب والظروف النفسية الخاصة بالفرد وبين ظروف بيئته الاجتماعية والثقافية والسياسية في تحديد طريقة معالجة الأفكار وطريقة التفكير لدى الإنسان. كما يتأثر تفكيرنا أيضا بمرجعياتنا الفكرية وميولنا وتخصصاتنا العلمية وغيرها.

وهو ما يفسر سر اختلاف العقول في التفكير والاستنتاج والاستنباط وغيرها من العمليات العقلية التي تتطلب معالجة للمعلومات والمعارف، والتي تجعلنا نقبل الاختلاف مع الآخرين ونحترم وجهات نظرهم واستنتاجاتهم ولا نغلظ على أنفسنا ونتعصب لأفكارنا..

أن العقل المسلم في الضئير من الأحيان يميل إلى قبول الخرافات والأوهام أكثر ما يقبل بالتفكير العلمي المنطقي والاستقرائي في الضئير من القضايا والظواهر خاصة فيما يتعلق بالقضايا الاجتماعية والنفسية والسلوكية

هناك من مازال يصدق و يؤمن بالتغيير الفجائي الذي يأتي بطريقة المعجزات كما حدث في عصر الأنبياء والرسل ولا يؤمن بالتغيير الذي يأتي بالسعي والعمل الإنساني وفق سنن الله في التغيير الذي يخطئ ويصيب

أن العقل المسلم أصبح محبذ البعض حبيس أدبيات التنظيمات والجماعات التي تنشط تحت راية الدعوة الإسلامية ونشر الإسلام والتي لكل منها أهدافها السياسية والتنظيمية لحشد الجماهير وتعبئتها للمريدين والأتباع

البعض من الجماعات تعتبر من لم يساندها ولم يقبل أفكارها وطروحاتها فهو كافرا بالدين

فكم نحن في حاجة إلى التفتح أكثر على أفكار واجتهادات الآخرين وآرائهم وحججهم وبراهينهم حتى ندنو معا إلى الحقيقة